

الخميس ١ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٤ بقلم الشهيد غسان كنفاني دون اسم [2] ويبدو الآن بعيداً كأنه لم يكن طوال العمر إلا واحداً من هذه الأحلام العظيمة التي تظلّ مع المرء وكأنها جزء منه، تكبير النصتصغير النصنص فقط وقد فعلت شيئاً حسناً حين أنكرته لأنك أنقذت الكثرين من رفاقه. ويأخذ الدنائير الخمسة ويعود إلى أريحا [7] وقد قال لها ذات يوم: "الختيار. هل ما زال حيّ؟" وحين قالت له "لا" أجابها "هل تقبليني أباً. وقف أبو القاسم مستشعراً الألم في خاصرته من طول الانحناء وكانت باقة الزهر الأحمر قد أصبحت كبيرة وبدت في يده الخشنة شعلة من اللهب، وقرر أن يبادرها بالجملة ذاتها التي بادرته بها حين أدركه في أريحا، آخر شيء يذكره أبو القاسم من عالمه القديم كان ذلك السلم الطويل الخشن الذي يوصل إلى بيت سعاد، أكثر من أي شيء آخر: لقد صعد درجات السلم ذلك الصباح دون أن يراوده أي شك بأنه سيعود فينزلها كما صعدها، إلا أنه فوجئ بقبضـة قوية تعـضـ كتفـه، وفتح أبو القاسم فمه دون أن ينوي قول شيء معين، حين قبضـت يـد الجنـدي بشـدة على زـندـه ورـفـع يـده بـعـنـفـ إلى فوقـ. ولم تتمـزـق وـسـطـ ذلك العـرـاكـ الأـحـمـقـ الذي يـجـري دون هـدـفـ معـيـنـ. وـسـاعـدهـ الجنـديـ الآخرـ فيـ صـلـبـهـ أـمـامـ الجـدارـ بـذـرـاعـيهـ المـفـتوـحـينـ إـلـىـ أـقـصـىـ مـاـ يـسـتـطـيـعـ، وـسـحبـهاـ بـمـاـ يـشـبـهـ الـاحـتـفـالـ المنـظـمـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ الرـخـامـيـةـ [10] وـوـقـفـ يـتـأـمـلـهـ لـحـظـةـ. كـمـاـ تـرـىـ بـرـقـوقـ نـيـسـانـ. وـابـتـسـامـةـ خـبـيـثـةـ وـنـظـرـ منـ طـرـفـ عـيـنـيـهـ إـلـىـ الجـنـديـيـنـ، إـنـيـ أـسـأـلـكـ لـلـمـرـةـ الـأـخـيـرـةـ. وـتسـاءـلـ إـنـ كـانـ يـتـعـيـنـ عـلـيـهـ الـآنـ مـرـةـ أـخـرـىـ أـنـ يـدـخـلـ الـغـرـفـةـ الثـانـيـةـ وـيـنـظـرـ إـلـيـهـ مـمـدـدـ عـلـىـ السـرـيرـ وـرـاحـةـ يـدـهاـ مـفـرـودـ الـأـصـابـعـ بـالـقـوـةـ وـمـلـطـخـةـ بـالـدـمـ. مـاـذـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـوـنـ هـذـاـ يـاـ سـيـدـيـ غـيرـ زـهـرـ الـبـرـقـوقـ الـذـيـ تـفـتـحـ هـذـاـ الصـبـاحـ عـلـىـ قـارـعـةـ الـطـرـيقـ. تـهـزـ كـتـفـيـكـ وـكـأـنـكـ بـرـيءـ! أـتـرـيدـ أـنـ أـسـاعـدـكـ قـلـيلـاـ. اـسـتـغـفـرـ اللـهـ. عـشـيقـ الـعـفـرـيـتـةـ الـتـيـ تـسـكـنـ هـنـاـ. إـلـاـ أـنـ صـورـةـ قـاسـمـ جـاءـتـ عـاصـفـةـ مـثـلـ الـاـرـطـاطـ، مـحـتـارـاـ تـحـتـ النـظـرـاتـ الـتـيـ كـانـ يـسـلـطـهـ عـلـيـهـ؟ هـلـ هـيـ بـخـيـرـ. وـبـدـتـ أـقـلـ جـمـالـاـ مـاـ كـانـتـ. مـاـ يـمـكـنـ لـلـزـهـرـ أـنـ يـعـنـيـ يـاـ سـيـدـيـ غـيرـ الـوـدـ. مـنـ الـذـيـ طـلـبـ مـنـكـ أـنـ تـقـطـفـهـ. مـاـ هـيـ عـلـاقـتـكـ بـسـعـادـ إـنـ. وـعـادـ فـضـحـكـ مـنـ جـدـيدـ لـفـتـرـةـ قـصـيـرـةـ وـصـمـتـ حـينـ الضـابـطـ [12] بـشـدـةـ؟ أـصـارـ بـوـسـعـهـ أـنـ يـقـولـ لـهـمـ بـأـنـ ذـلـكـ الـفـتـىـ الـمـضـرـجـ الـمـمـدـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ فـيـ مـخـفـرـ أـرـيـحاـ هوـ اـبـنـهـ قـاسـمـ. مـعـلـقـةـ فـيـ كـلـمـةـ وـاـحـدـةـ قـدـ يـلـفـظـهـ فـيـ أـيـةـ لـحـظـةـ دـوـنـ أـنـ يـدـرـيـ، وـهـيـ لـاـ تـعـنـيـ شـيـئـاـ خـطـيـرـاـ عـلـىـ الإـطـلـاقـ. قـلـتـ لـنـفـسـيـ وـأـنـ أـمـرـ مـنـ هـنـاـ: هـذـاـ بـيـتـ صـدـيقـيـ الـقـدـيمـ، زـهـرـ يـاـ سـيـدـيـ. وـأـنـ الفـخـ الـمـنـصـوبـ فـيـ الـغـرـفـةـ إـنـماـ يـتـعـلـقـ بـقـضـيـةـ أـكـثـرـ خـطـرـاـ مـاـ يـعـتـقـدـ، وـأـرـغـمـاهـ عـلـىـ رـفـعـ ذـرـاعـيـهـ إـلـىـ الـأـعـلـىـ وـوـجـهـهـ نـوـحـ الـجـدـارـ، وـعـادـ الـجـنـديـانـ فـوـضـعـاـ الـأـوـرـاقـ الـتـيـ اـنـتـزـعـاهـاـ مـنـ جـيـوـبـهـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ، هـذـهـ الـمـلـعـونـةـ سـعـادـ كـانـتـ تـعـيـشـ تـحـتـ بـصـرـنـاـ وـنـحـنـ لـاـ نـعـرـفـ، وـهـاـ هـمـ أـفـرـادـ الـعـصـابـةـ يـتـقـاطـرـونـ إـلـىـ بـيـتـهـاـ وـاـحـدـاـ إـثـرـ الـآـخـرـ. وـأـجـابـ الـرـجـلـ الـجـدـيدـ وـوـجـهـهـ مـاـ يـزالـ إـلـىـ الـحـائـطـ: خـبـزـنـاـ صـبـاحـ الـيـوـمـ صـدـرـاـ مـنـ الـكـنـافـةـ، كـعـاتـنـاـ فـيـ الـحـيـ بـعـثـنـاـ مـعـ وـلـيـدـ صـحـنـاـ لـسـعـادـ. وـعـنـدـمـاـ تـأـخـرـ وـلـيـدـ جـئـتـ أـبـحـثـ عـنـهـ؟ أـيـمـكـنـ أـنـ يـكـوـنـ زـيـادـ هـذـاـ وـالـدـأـوـ شـقـيقـ فـتـىـ مـاـ اـسـتـشـهـدـ ذـاتـ يـوـمـ وـهـوـ يـأـتـيـ كـلـ شـهـرـ لـسـعـادـ كـيـ يـأـخـذـ خـمـسـ دـنـائـيرـ. هـلـ تـعـرـفـ أـيـاـ مـنـ هـؤـلـاءـ. وـلـكـنـ الـعـادـاتـ يـاـ سـيـدـيـ تـقـتـضـيـ مـاـنـ أـنـ نـرـسـلـ مـثـلـ هـذـهـ الـهـدـاـيـاـ الصـغـيـرـةـ إـلـىـ جـبـرـانـتـاـ؟ هـلـ أـمـسـكـتـمـوـهـاـ. وـلـذـلـكـ أـرـسـلـتـ لـهـاـ صـحـنـ الـكـنـافـةـ. أـتـعـقـدـ أـنـهـاـ سـتـعـودـ إـلـىـ هـنـاـ. سـعـادـ طـبـعـاـ أـيـهـاـ الغـبـيـ. وـكـلـ إـنـسـانـ يـعـودـ إـلـىـ بـيـتـهـ. إـلـاـ إـذـاـ اـسـتـطـاعـ الـهـرـبـ قـبـلـ ذـلـكـ. [14] وـأـحـسـ أـبـوـ القـاسـمـ بـكـنـزـ غـامـضـ يـمـلـأـ صـدـرهـ، وـهـوـ بـلـارـبـ يـلـعـبـ فـيـهـاـ دـوـرـاـ كـبـيـرـاـ دـوـنـ أـنـ يـعـرـفـ عـلـىـ وـجـهـ التـحـدـيدـ مـاـ هـوـ دـوـرـهـ هـذـاـ؟ إـنـيـ فـيـ وـضـعـ أـكـثـرـ سـوـءـاـ مـنـ وـضـعـكـ. وـلـمـاـذـاـ تـكـوـنـ باـقـةـ الزـهـرـ أـكـثـرـ بـرـاءـةـ مـنـ صـحـنـ الـكـنـافـةـ. وـقـالـ زـيـادـ بـلـهـجـةـ ضـارـعـةـ، وـلـمـحـ أـبـوـ القـاسـمـ مـرـةـ أـخـرـيـ تـلـكـ الرـسـالـةـ الـغـامـضـ تـوـمـضـ كـالـبرـقـ فـيـ عـيـنـيـ زـيـادـ وـهـمـاـ تـطـلـانـ عـلـيـهـ وـكـأـنـهـمـاـ تـعـبـرـانـ بـهـ، إـنـ قـصـتـكـ لـمـ تـنـتـهـ أـيـهـاـ الشـيـخـ الـخـبـيـثـ، التـحـقـيقـ سـيـنـظـرـ فـيـ أـمـرـ إـطـلـاقـ سـرـاحـكـ أوـ اـعـتـقـالـكـ، وـلـاـنـ لـأـرـيدـ أـنـ يـسـمـعـ صـوتـاـ. أـلـاـ نـسـتـطـعـ أـنـ نـرـسـلـ كـلـمـةـ إـلـىـ أـهـالـيـنـاـ. قـلـتـ لـكـمـ أـنـ تـصـمـتـواـ. أـلـاـ تـسـمـحـونـ لـهـ بـالـذـهـابـ إـلـىـ بـيـتـيـ لـيـطـمـئـنـ زـوـجـتـيـ، غـيرـ قـادـرـ عـلـىـ فـهـمـ جـرـيـ عـلـىـ وـجـهـ التـحـدـيدـ، وـقـدـ اـسـتـطـاعـ أـنـ يـلـتـقـطـ لـلـمـرـةـ الـثـانـيـةـ اـسـمـ "طـلـالـ"، وـلـكـنـهـ لـمـ يـكـنـ لـيـسـتـطـعـ أـنـ يـفـهـمـ مـاـذـاـ يـعـنـيـ هـذـاـ كـلـ، مـسـتـعـيـداـ فـيـ ذـاـكـرـتـهـ صـورـةـ طـلـالـ الـقـدـيمـةـ، الـذـيـ صـارـ يـرـاهـ لـمـاـمـاـ مـنـذـ أـنـ تـسـلـمـتـهـ سـعـادـ. إـنـهـ يـدـرـكـ أـنـ زـيـادـاـ يـرـيدـ أـنـ يـقـولـ شـيـئـاـ عـنـ طـلـالـ، ؟ وـمـاـ عـلـاقـتـهـ هـوـ بـالـأـمـرـ؟ لـقـدـ تـذـكـرـ الـآنـ أـنـهـ مـرـةـ سـأـلـ سـعـادـ إـنـ كـانـ طـلـالـ يـعـملـ مـعـهـمـ. فـضـحـكـتـ وـقـالـتـ: "لـوـلاـ طـلـالـ لـكـانـتـ حـالـتـنـاـ حـالـةـ. وـهـوـ وـحـدـهـ الـذـيـ يـجـبـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـسـئـلـةـ، فـلـمـاـذـاـ لـيـقـدـمـ الـأـسـتـاذـ زـيـادـ عـلـىـ التـصـرـفـ؟ وـفـجـأـةـ سـأـلـ أـبـوـ القـاسـمـ نـفـسـهـ: لـوـ كـانـ قـاسـمـ هـنـاـ مـكـانـ الـأـسـتـاذـ زـيـادـ، ؟ ثـمـ عـادـ فـسـأـلـ نـفـسـهـ مـرـةـ أـخـرـىـ: لـوـ كـانـ مـكـانـيـ، وـكـانـ يـمـكـنـ لـهـذاـ الصـوتـ أـنـ يـعـبـرـ دـوـنـ اـنـتـبـاهـ لـوـ لـمـ يـتـحـركـ الضـابـطـ بـهـدـوـءـ، وـيـرـفـعـ سـلاـحـهـ عـنـ رـكـبـتـيـهـ وـهـوـ يـنـظـرـ نـوـحـ الـجـنـديـيـنـ الـذـيـنـ اـتـجـاهـاـ نـوـحـ الـبـابـ دـوـنـ أـنـ يـصـدـرـأـيـ صـوتـ، وـمـضـتـ فـتـرـةـ مـنـ الـوقـتـ خـيـمـ فـيـهـاـ صـمـتـ عـمـيقـ، ثـمـ صـدـرـ ذـلـكـ الصـوتـ الـمـكـتـومـ لـخـطـوـةـ مـرـةـ أـخـرـىـ، وـدـوـنـ أـنـ يـتـخـذـ قـرـارـهـ بـصـورـةـ مـسـبـقـةـ، وـانـقـضـ عـلـيـهـ الضـابـطـ وـصـفـعـهـ بـقـفـاـ كـفـهـ فـأـلـقـاهـ عـلـىـ الـأـرـضـ، كـانـ فـمـهـ يـنـزـفـ خـيـطاـ رـفـيـعاـ مـنـ الـدـمـ يـتـسـرـبـ فـيـ شـعـرـ لـحـيـتـهـ الشـائـبـ، لـقـدـ تـعـمـدـتـ ذـلـكـ أـيـهـاـ الـثـلـبـ الـعـجـوزـ. تـعـمـدـتـ مـاـذـاـ يـاـ سـيـدـيـ. لـقـدـ صـرـخـتـ كـيـ يـهـرـبـ. كـنـتـ عـلـىـ وـشـكـ أـنـ أـعـتـقـدـ

أنك عجوز بريء. لم أكن على خطأ حين شكت بهذه الباقة اللعينة. ثم أخذ ينقلها كمؤشر بين زياد وأبي القاسم. ؟ كنت أنت الذي اقترحـتـ أن نطلق سراح هذا الشـيـخـ الخـبـيثـ لأنـهـ يـبـدوـ بـرـيـئـاـ. إنهـ يـعـتـقـدـ الآـنـ أـنـ هـنـاـكـ فـرـصـةـ الفـرـارـ لأـحـدـكـمـ. ! سـنـتـنـزـعـ اـسـمـهـ مـثـلـمـاـ يـنـتـزـعـ الـضـرـسـ النـتـنـ. وـلـكـ إـذـاـ سـمـحـتـ لـيـ أـرـجـوـ أـلـاـ تـقـلـقـ كـثـيرـاـ، جـاءـ يـسـأـلـ عـنـهـ وـخـافـ عـنـدـمـاـ سـمـعـ الـجـلـبـةـ فـهـرـبـ. أـلـمـ أـقـلـ لـكـ يـاـ سـيـديـ قـبـلـ ذـلـكـ إـنـ طـلـالـ يـنـتـظـرـ وـلـيـدـ لـيـلـعـبـ مـعـهـ. وـهـنـ الضـابـطـ رـأـسـهـ مـرـتـابـاـ وـهـوـ بـيـتـسـمـ اـبـتـسـامـةـ الـعـارـفـ الـذـيـ لـاـ يـسـهـلـ خـدـاعـهـ، - لـمـ تـكـنـ الـخـطـوـةـ طـفـلـ. بـقـلـمـ الشـهـيدـ غـسـانـ كـنـفـانـيـ